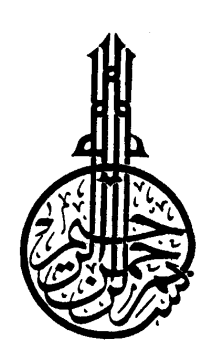


صفحات مشرقة من سيرة الأم المسلمة

جمع وترتيب
محمد بن أحمد بن إسماعيل
«عفا الله عنه»



هو الفصل الثانى من القسم الثانى
من

"عودة الحجاب"

«المـرأة بـين تكـريم الإســـــلام
وإهـانـة الجـــــاهـلـيـــــة»

الأم المسلمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعــد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار [١].

أما بعــد: فقد أوصى الله تعالى في مواضع من كتابه بالإحسان إلى الوالدين، وقَرَنَهُ بالأمر بعبادته، والنهي عن الشرك به، وأمر بالشكر لهما متصلاً بالشكر له، وخَصَّ الأُم بالذِكْر في بعض هذه الوصايا للتذكير بزيادة حقها على حق الأب.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد البرَّ بهما مع اللطف، ولين الجانب، فلا يُغْلظْ لهما في الجواب، ولا يَحدْ النظر إليهما، ولا يَرْفَع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد

---

(١) هذه هي خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يستفتح بها خطبه، ودروسه، ومواعظه، وللعلامة الألباني رسالة فيها فراجعها. اهـ.

بين يدى السيد تذللاً لهما» [١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ [٢] رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ قال البغوى رحمه الله: [يريد: لا تقل لهما ما فيه أدنى تبرم، والأُفُّ والتُّفُّ: وَسَخُ الأظفار، ويقال لكل ما يُستثقل ويُضْجَر منه: أُفٌّ له.

قال مجاهد: لا تَقْذَرْهُما كما كانا لا يَقْذَرانكَ [٣].

وقال الهيثمى رحمه الله تعالى: [﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/٦٦).
(٢) قضى هنا بمعنى: أمر، وألزم، وأوجب. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: «ليس هذا قضاء حكم، بل هو قضاء أمر». اهـ. (من الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٣٧).
(٣) «شرح السنة» (١٣/١٥)، وانظر «فضل الله الصمد» (١/٦٠ ـ ٦١).

كَرِيمًا﴾ ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم: أى اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة، وموافقة مرادهما، وميلهما، ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر، فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل لما يغلب عليه من الخرف وفساد التصور، فيرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، فإذا طُلبَتْ رعايته وغاية التلطف به فى هذه الحالة، وأن يُتَقَرَّبَ إليه بما يناسب عقله إلى أن يرضى؛ ففى غير هذه الحالة أولى] (١).

قال أبو البداح التُّجيبُى: [قلت لسعيد بن المسيب: كل ما فى القرآن من بر الوالدين قد عرفته، إلا قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ] (٢).

[وقوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ قال عطاء: «لا ينبغى لك أن ترفع يديك على

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٦٦/٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٤٣/١٠).

والديك ولا إليهما تعظيماً لهما» ، وقال عروة: «لا تمتنع من شيء أحبَّاه»] [(١)].

فينبغي للإنسان ـ بحكم هذه الآية ـ أن يتذلل لوالديه تذلل الرعية للأمير، والعبيد للسادة، وقد ضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده.

[ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القول بأن لا يُكلِّما إلا مع الاستكانة، والذل، والخضوع، وإظهار ذلك لهما، واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلك ذليل حقير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما، ويبرد قلبهما عليه، فيعطفا عليه بالرضا والدعاء، ومِن ثَمَّ طلب منه بعد ذلك أن يدعو لهما، لأن ما سبق يقتضي دعاءهما له كما تقرر، فليكافئهما إن فُرِضَتْ

(١) «شرح السنة» (١٥/١٣)، وانظر «فضل الله الصمد» (٦٠/١ ـ ٦١).

مساواة، وإلا فشتان ما بين المرتبتين [١]، وكيف تُتَوهَّمُ المساواة، وقد كانا يحملان أذاك وكَلَّكَ، وعظيم المشقة فى تربيتك، وغاية الإحسان إليك، راجين حياتك، مؤمِّلين سعادتك، وأنت إن حملت شيئاً من أذاهما رجوت موتهما، وسئمت من مصاحبتهما، ولكون الأم أحمل لذلك وأصبر عليه مع أن عناءها أكثر وشفقتها أعظم بما قاسته من حمل، وطلق، وولادة، ورضاع، وسهر ليل، وتلطخ بالقذر، والنجس، وتجنب للنظافة، والترفه، حض النبى ﷺ على برها ثلاث مرات، وعلى بر الأب مرة واحدة كما فى الحديث الصحيح] [٢].

❑ **تنبيـــــه:**

لا يختص بر الوالدين بكونهما مسلمين، بل يبرهما وإن كان كافرين، ويحسن إليهما، إذا كانا لهما عهد، قال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ**

(١) انظر «فضل الله الصمد» (٤١/١).
(٢) «الزواجر» (٦٦/٢).

وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٨].

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: (قَدِمَت عليَّ أمي - وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم - فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! قدمت على أمي - وهي راغبة - [(١)] أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك») [(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ [(٣)] وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي

---

(١) أي: في برى وصلتي، وقيل: راغبة عن الإسلام كارهة له، قال ابن عطية: (والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها). اهـ. من «الجامع لأحكام القرآن» (٦٥/١٤)، وأم أسماء هي قتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسد، وأم عائشة، وعبد الرحمن هي أم ورمان قديمة الإسلام.

(٢) رواه البخارى (١٧/١٣ ـ ١٨) فى الأدب: باب صلة الوالد المشرك، وفى الهبة، والجهاد، ومسلم رقم: (١٠٠٣)، واللفظ له، فى الزكاة: باب فضل الصدقة على الأقربين ولو كانوا مشركين، وأبو داود رقم: ١٦٦٨)، فى الزكاة: باب الصدقة على أهل الذمة.

(٣) أي: حملته فى بطنها، وهى تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، ثم تعانى الوضع =

وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

فإذا أمر الله تعالى بمصاحبة هذين بالمعروف مع هذا القبح العظيم الذى يأمران ولدهما به، وهو الإشراك بالله تعالى، فما الظن بالوالدين المسلمين سيما إن كانا صالحين، تالله إنَّ حقهما لمن أشد الحقوق وآكدها، وإن القيام به على وجه أصعب الأمور، وأعظمها، فالموفق من هدى إليهما، والمحروم كل المحروم من صرف عنها، وقد جاء فى السنة من التأكيد فى ذلك ما لا تحصى كثرته، ولا تحد غايته، فمن ذلك:

* ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن

= ثم الرضاعة، والتربية.

صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من، قال: «ثم أبوك»)[(١)].

* وعن المقدام بن معدى كرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب**»[(٢)].

* وعن أبى رمثة ﷺ قال: (انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «**بر أمك، وأباك، وأختك، وأخاك، ثم أدناك أدناك**»)[(٣)].

* وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (سألت النبى

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٣ ـ ٦) فى الأدب: باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم رقم: (٢٥٤٨)، فى البر: باب بر الوالدين.

(٢) أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٦٠)، واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٦١)، والحاكم (١٥١/٤)، والإمام أحمد (١٣١/٤، ١٣٢)، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» رقم: (١٦٦٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١٥١/٤) واللفظ له، والإمام أحمد (٢٢٦/٢)، وصححه الألبانى فى «إرواء الغليل» (٣٢٢/٣)، وتأمل كيف قدم الأم على الأب، وكذا قدم الأخت على الأخ.

ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت ثم أى؟، قال: «ثم بر الوالدين»، قلت: ثم أى؟ قال: «ثم الجهاد فى سبيل الله»، قال: حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى) [١].

فأخبر ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام، ورتب ذلك بـ «ثم» التى تقتضى الترتيب، والمهلة.

* وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لرجل استأذنه فى الجهاد: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» [٢]، وفى رواية لمسلم قال: (أقبل

---

(١) رواه البخارى فى مواقيت الصلاة وفضلها: باب فضل الصلاة لوقتها، وفى الجهاد، والسير، وفى الأدب، وخرجه مسلم، واللفظ له فى الإيمان رقم: (١٣٩).

(٢) رواه البخارى (٦/٩٧ ـ ٩٨) فى الجهاد: باب الجهاد بإذن الأبوين، وفى الأدب، ومسلم رقم: (٢٥٤٩) فى البر والصلة: باب بر الوالدين، وأبو داود رقم: (٢٥٣٠)، فى الجهاد: باب فى الرجل يغزو، وأبواه كارهان، والترمذى رقم: (٦١٧١)، فى الجهاد: باب فيمن خرج فى الغزو وترك أبويه، والنسائى (٦/١٠) فى الجهاد: باب =

رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: **«فهل من والديك أحد حي؟»** قال: نعم، بل كلاهما حي، قال: **«فتبتغي الأجر من الله؟»** قال: نعم، قال: **«فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»**، وفي رواية أخرى لأبي داود، والنسائي عنه ﷺ قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبويَّ يبكيان، قال: **«فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»**، وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: **«رضى الرب في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»** [(١)].

= الرخصة في التخلف لمن له والدان، (١٤٣/٧)، في البيعة: باب البيعة على الهجرة، وهذا محمول على ما لم يتعين الجهاد كأن يقع النفير، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع.

(١) رواه الترمذي رقم: (١٩٠٠) في البر والصلة: باب ما جاء في بر الوالدين، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٢/١)، وصححه ابن حبان (٢٠٢٦ ـ موارد) والحاكم (١٥٢/٤)، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

□ **تنبيـــــه:**

قال الغزالي: (من يخدم أبويه ينبغي أن لا يطلب بخدمته منزلة عندهمـــا إلا من حـــيث إن رضى الله في رضى الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعة لينال بهـا منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عنه ريائه فتسقط منزلته من قِبَلِهما أيضاً) [١] .اهـ.

* وعن معاوية بن جاهمة ﷺ قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: «هل لك أم؟» قال: نعم، قال: **«فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها»** [٢]).

(١) نقلاً من «فضل الله الصمد» (١/١١١).

(٢) رواه النسائي (٦/١١) في الجهاد: باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، وابن ماجه رقم: (٢٧٨١)، والحاكم (٤/١٥١)، وصححه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد (٣/٤٢٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/١٧٦)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/١٣٨)، وقال: (رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله ثقات). اهـ. وانظر: «الترغيب والترهيب» (٣/٣١٦).

* وعن كعب بن عجرة ﷺ قال: (مر على النبى ﷺ رجل، فرأى أصحابه من جَلَده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على أولاده صغاراً فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفُّها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان**»[١].

* (ورُوِىَ عن ابن عمر ﷺ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أصبت ذنباً عظيماً فهل لى من توبة؟ فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: لا، قال: «**فهل لك من خالة؟**» قال: نعم، قال: «**فبَرَّها**»[٢].

---

(١) (أخرجه الطبرانى فى معاجمه الثلاث، ورجال الكبير رجال الصحيح). اهـ. كذا قال الهيثمى فى «المجمع»، والمنذرى فى «الترغيب والترهيب»، ورمز له السيوطى فى «الجامع الصغير» بالصحة، «فيض القدير» (٣١/٣)، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٨/٢).

(٢) رواه الترمذى رقم: (١٩٠٥) فى البر والصلة: باب: بر الخالة =

* قال البغوى: [وقد صح عن البراء، عن النبى ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأم» (١)].

* وقال مكحول: [بر الوالدين كفارة للكبائر، ولا يزال الرجل قادراً على البر ما دام فى فصيلته من هو أكبر منه] (٢).

* وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أنه أتاه رجل فقال: إنى خطبت امرأة، فأبت أن تنكحنى، وخطبها غيرى فأحبت أن تنكحه، فغرت عليها، فقتلتها، فهل لى من توبة؟ قال: «أمك حية؟» قال: لا، قال: تب إلى الله عز

= مرسلاً، ومسنداً، وقال: «إن المرسل أصح» وأما المتصل فصححه ابن حبان (٢٠٢٢ ـ موارد)، والحاكم (١٥٥/٤)، بلفظ: « والدان» وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبى، ورواه الإمام أحمد (١٤/٢)، واللالكائى رقم: (١٩٦٨).

(١) رواه الترمذى رقم (١٩٠٥)، فى البر والصلة: باب بر الخالة، وقال: «هذا حديث صحيح». والحديث رواه فى قصة طويلة البخارى (٣٨٥/٧ ـ ٣٩١)، فى المغازى: باب عمرة القضاء، وفى الحج، والصلح، والجهاد، ومسلم رقم: (١٧٨٣) فى الجهاد: باب صلح الحديبية فى الحديبية.

(٢) «شرح السنة» (١٣/١٣).

وجل، وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إنى لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة) [١].

* وعن طيسلة بن ميّاس قال: (كنت مع النجدات [٢] فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر رضي الله عنهما، قال: ما هى؟ قلت: كذا، وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر) إلى أن قال: (قال لى ابن عمر رضي الله عنهما: أتفْرَق من النار، وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: أى والله! قال: أحىٌّ والداك؟ قلت: عندى أمى، قال: فوالله لو ألنْتَ لها الكلام وأطعمتها، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر) [٣].

---

(١) رواه البخارى فى «الأدب المفرد» رقم: (٤)، والبيهقى، واللالكائى فى «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» رقم: (١٩٥٧).

(٢) فرقة من الخوارج، تنسب إلى نجدة بن عامر الحنفى، انظر: «الملل والنحل» للشهرستانى (١/١٢٢ ـ ١٢٥).

(٣) أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» رقم: (٨)، والطبرى فى «التفسير»، وعبد الرزاق الخرائطى فى «مساوىء الأخلاق»، كما فى حاشية «فضل الله الصمد» (١/٥٩).

* وعن أبى هريرة ﷺ مرفوعاً: «رَغِمَ أَنْفُهُ[١]، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟، قال: «من أدرك أبويه عند الكبر: أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»[٢].

وعَدَّ النبى ﷺ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وخص الأمهات بالذكر، فقال ﷺ: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[٣].

---

(١) رغم أنفه: الرغام: التراب، ورغم أنفه: أى لصق بالتراب، والمعنى: ذل، وخزى من قصر فى برهما عند ذلك، وفاته دخول الجنة.
(٢) رواه مسلم (٢٥٥١) فى الأدب: باب رغم أنف من أدرك أبويه فلم يدخل الجنة، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٨٦/١)، والترمذى رقم: (٣٥٣٩) فى الدعوات: باب رقم: (١١٠) وحسنه، والإمام أحمد (٣٤٦/٢).
(٣) رواه البخارى من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ فى الزكاة: باب قول الله تعالى: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٢٧٠/٣)، وفى الأدب: باب عقوق الوالدين من الكبائر، ومسلم، واللفظ له، رقم: (٥٣٩)، وفى الأقضية: باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة.

* وعن أبي بكرة ﷺ قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» - ثلاثاً - قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يقولها حتى قلنا: لا يسكت**) [١].

وفي رواية: «حتى قلنا: ليته سكت»، يعني: قلناها إشفاقاً عليه، لما رأوا من إنزعاجه ﷺ.

* وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه، قال: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**» [٢].

---

(١) رواه البخاري (١٩٣/٥)، في الشهادات: باب ما قيل في شهادة الزور، وفي الأدب: باب عقوق الوالدين من الكبائر، وفي الاستئذان، وفي استتابة المرتدين، ومسلم رقم (٨٧)، في الإيمان: باب بيان الكبائر وأكبرها، والترمذي رقم (٢٣٠٢)، في الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور.

(٢) رواه البخاري (٣٣٨/١٠) في الأدب: باب لا يسب الرجل والديه =

وقد كان من أشد ما يؤلم نفسه الكريمة ﷺ أن يسمع الرجل يعيِّر الرجل بأمه، وآية ذلك ما حدَّث المعرور بن سويد قال: (رأيت أبا ذر الغفارى، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك، فقال: إنى سابيت رجلاً، فشكانى إلى النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: **«أعيَّرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية»** ثم قال: **«إن خدمكم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»** [١].

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «من

= ومسلم رقم: (٩٠)، فى الإيمان: باب بيان الكبائر وأكبرها، والترمذى رقم: (١٩٠٣)، فى البر: باب ما جاء فى عقوق الوالدين، وأبو داود رقم: (٥١٤١)، فى الأدب: باب فى بر الوالدين.

(١) رواه البخارى (١/ ٨٠ ، ٨١)، فى الإيمان: باب المعاصى من أمر الجاهلية، وفى العتق، والأدب، ومسلم رقم: (١٦٦١)، فى الإيمان: باب إطعام المملوك مما يأكل، وأبو داود الأرقام: (٥١٥٧)، (٥١٥٨)، (٥١٦١)، فى الأدب: باب حق المملوك.

الكبائر عند الله تعالى أن يستسب الرجل لوالده» [١].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قبله، ولا تدْعُه باسمه، ولا تستسب له» [٢].

***

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٢٨)، والمعنى: أن يكون سبب لسب الأبوين سواء سب أحداً، أو آذى أحداً.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٤٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه»، والبيهقي، وابن السني مرفوعاً رقم: (٣٩٧).

فصل
بر الوالدين بعد موتهما

* عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان [١] انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له» [٢].

* وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجرى يبلغه أجرها، وعلم يُعْمَلُ به من بعده» [٣]. وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «ترفع للميت بعد

---

(١) أى: المؤمن، فقد بينت السنة اشتراط كون الأب مؤمناً موحداً كما يأتى إن شاء الله.

(٢) رواه مسلم رقم: (١٦٣١)، فى الوصية: باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، وأبو داود رقم: (٢٨٨٠)، فى الوصايا: باب ما جاء فى الصدقة عن الميت، والترمذى رقم: (١٣٧٦)، فى الأحكام: باب فى الوقف، والنسائى (٦/٢٥١) فى الوصايا: باب فضل الصدقة عن الميت، والطحاوى فى: «مشكل الآثار» (١/٨٥)، والبيهقى (٦/٢٧٨)، والإمام أحمد (٢/٣٧٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/١٠٦)، وابن حبان فى «صحيحه» رقم: (٨٤ ، ٨٥)، والطبرانى فى «المعجم الصغير» ص: (٧٩) =

موته درجة، فيقول: أى رب! أى شيء هذه؟ فيقال: ولدك استغفر لك» [١].

ومن البر بهما بعد موتهما: قضاء صوم النذر، أو الكفارة عنهما:

* فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«من مات وعليه صيام، صام عنه وليُّه»** [٢].

ومن البر بهما بعد موتهما: التصدق عنهما.

* فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إن أمى توفيت، أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال:

= وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١/١٥)، وصحح إسناده الحافظ المنذرى فى «الترغيب» (١/٥٨).

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠)، والإمام أحمد (٢/٥٠٩)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (١/٣٦)، وقال البوصيرى فى «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات (٣/١٥٩)، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» رقم: (١٥٩٨) (٤/١٢٩).

(٢) أخرجه البخارى (٤/١٦٨) فى الصوم: باب من مات وعليه صوم، ومسلم رقم: (١١٤٧) فى الصوم: باب قضاء الصيام عن الميت، وأبو داود رقم: (٢٤٠٠) فى الصوم: باب فيمن مات وعليه صوم.

«نعم»، قال: فإن لى مَخْرَفاً، فأنا أشهدك أنى قد تصدقت به عنها [١].

* وعن عائشة رضي الله عنها (أن رجلاً قال: إن أمى افْتُلِتَت [٢] نفسها ولم توص، أظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولى أجر؟ قال: «نعم فتصدق عنها») [٣].

* وعن أبى هريرة رضي الله عنه: (أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إن أبى مات وترك مالاً، ولم يوصِ، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: «نعم») [٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩/٥)، فى الوصايا: باب إذا قال: أرضى وبستانى صدقة عن أمى فهو جائز، وباب الإشهاد فى الوقف والصدقة، وباب إذا وقف أرضاً، ولم يبين الحدود فهو جائز، وأبو داود رقم: (٢٨٨٢)، في الوصايا، والترمذى رقم: (٦٦٩) فى الزكاة، والنسائى (٢٥٢/٦ ، ٢٥٣)، والمخرف: النخل: لأنها تخرف ثمارها، أى تجتنى.

(٢) افتلتت: افلتت نفس فلان، أى: مات فجأة، كأن نفسه أخذت فلتة.

(٣) رواه البخارى (٢٩١/٥) فى الوصايا: باب ما يستحب لمن توفى فجأة أن يتصدقوا عنه، وفى الجنائز، ومسلم رقم: (١٠٠٤)، فى الزكاة، وأبو داود رقم: (٢٨٨١) فى الوصايا، والنسائى(٢٥٠/٦)، فى الوصايا، وابن ماجه (١٦٠/٢)، والإمام أحمد (٥١/٦).

(٤) أخرجه مسلم (٧٣/٥)، والنسائى (١٢٩/٢)، وابن ماجه (١٦٠/٢)، والبيهقى (٢٧٨/٦)، والإمام أحمد (٣٧١/٢).

* وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: (أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وأن عَمْرًا سأل النبى ﷺ عن ذلك؟ فقال: **«أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد، فصمت، وتصدقت عنه، نفعه ذلك»**) [(١)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٢/٢)، وقال الألبانى فى «الصحيحة» رقم: (٤٨٤): وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات، على الخلاف المعروف فى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ إلى أن قال حفظه الله تعالى: ـ والحديث دليل واضح على إن الصدقة، والصوم تلحق الوالد، ومثله الوالدة بعد موتهما إذا كانا مسلمين، ويصل إليهما ثوابهما، بدون وصية منهما، ولما كان الولد من سعى الوالدين، فهو داخل فى عموم قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ فلا داعى لتخصيص هذا العموم بالحديث، وما ورد فى معناه فى الباب، مما أورده المجد بن تيمية فى «المنتقى» كما فعل البعض.
واعلم أن كل الأحاديث التى ساقها فى الباب هى خاصة بالأب أو الأم من الولد، فالاستدلال بها على وصول ثواب القرب إلى جميع الموتى كما ترجم لها المجد ابن تيمية بقوله: «باب وصول ثواب القرب المهداة إلى الموتى» غير صحيح، لأن الدعوى أعم من الدليل، لم يأت دليل يدل دلالة عامة على انتفاع عموم الموتى من عموم أعمال الخير التى تهدى إليهم من الأحياء، اللهم إلا فى أمور خاصة ذكرها الشوكانى فى «نيل الأوطار» (٧٨/٤ ـ ٨٠) ثم الكاتب فى كتابه: «أحكام الجنائز وبدعها» من ذلك الدعاء للموتى =

ويُروى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة، فقال: يا رسول الله: هل بقى من بر أبوىَّ شىء أبرهما بعد موتهما؟ فقال: **«نعم، الصلاة عليهما [١]، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»)** [٢].

= فإنه ينفعهم إذا استجابه الله تبارك وتعالى، فاحفظ هذا تنج من الإفراط، والتفريط فى هذه المسألة، وخلاصة ذلك إن للولد أن يتصدق، ويصوم، ويحج، ويعتمر، ويقرأ القرآن عن والديه لأنه من سعيهما، وليس له ذلك عن غيرهما، إلا ما خصه الدليل مما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم». اهـ. من «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم: (٤٨٤).

(١) أى الدعاء لهما بالرحمة، وإن لم يكن بلفظ الصلاة، فإن الله تعالى لم يجعل الدنيا عوضاً عن بر الوالدين، بل قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾، أى: سل الله لهما الفوز فى الجنة.

(٢) رواه أبو داود رقم: (٥١٤٢)، فى الأدب: باب بر الوالدين، وابن ماجه رقم: (٣٦٦٤)، فى الأدب: باب صل من كان أبوك يصل، وابن حبان رقم: (٢٠٣٠)، وفى سنده على بن عبيد الساعدى، الراوى عن أبى أسيد، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقى رجال السند ثقات، والحديث ضعف الألبانى إسناده فى «تحقيق المشكاة» رقم: (٤٩٣٦)، و«ضعيف ابن ماجه» ص: (٢٩٦) رقم: (٨٠٠).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: [أنه كان إذا خرج إلى مكة، كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار، إذ مر به أعرابى، فقال: ألست ابن فلان! قال: بلى، فأعطاه الحمار، فقال: اركب هذا، والعمامة، وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابى حماراً كنت تَرَوَّحُ عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك، فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أَبَرِّ البر صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يولي»، وإن أباه كان وُدّاً لعمر] (١).

* وفى رواية البخارى فى: «الأدب المفرد»، وكذلك

(١) رواه مسلم رقم: (٢٥٥٢)، فى البر والصلة: باب فضل صلة أصدقاء الوالد، وأبو داود رقم: (٥١٤٣) فى الأدب: باب بر الوالدين، والترمذى رقم: (١٩٠٤)، فى البر والصلة: باب ما جاء فى إكرام صديق الوالد. ومعنى: «أبر البر»: أفضله بالنسبة إلى والده، وكذا والدته، وذلك بأن يحفظ الإبن أهل ود أبيه وأمه إذا ماتا، أو غابا، فيحسن إلى قرابتهما وأحبائهما، فإن هذا من تمام الإحسان إلى الأب، وإن ما عد هذا من أبر البر، لأنه إذا حفظ غيبته فهو بحفظ حضوره أولى وأحرى.

الترمذي مختصراً: «إن أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدّ أبيه».

* ويروى عن عبد الله بن دينار بلفظ: «مر أعرابي في سفر، فكان أبو الأعرابي صديقاً لعمر رضي الله عنه، فقال الأعرابي: ألست ابن فلان؟ قال: بلى، فأمر له ابن عمر بحمارٍ كان يستعقب [١]، ونزع عمامته عن رأسه فأعطاه، فقال بعض من معه: أما يكفيه درهمان؟ [٢]، فقال: قال النبي ﷺ: «احفظ وُدّ أبيك، لا تقطعه فيطفىء الله نورك» [٣].

* وعن ثابت البناني عن أبي بردة قال: (قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: أتدري لم أتيتك؟

---

(١) أي: يستريح عليه إذا ضجر من ركوب البعير، كما في الرواية السابقة.
(٢) ولفظ مسلم: «قال ابن دينار: قلنا له: إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير».
(٣) رواه بهذا اللفظ البخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٤٠)، وعزاه في «الجامع الصغير» إلى الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الحافظ العراقي: «إسناده جيد»، وحسنه الهيثمي، والسيوطي، «فيض القدير» (١٩٦/١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٦/١) رقم: (٢١٠).

قال: قلت: لا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده»، وإنه كان بين أبي: عمر، وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك» [١].

***

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٣١)، وصححه الألباني على شرط البخاري، وعزاه إلى أبي يعلى، «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٤٣٢) (٤١٧/٣، ٤١٨).

عاقبة البر
ومواقف سلفية فى بر الوالدين

* وعن عـائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبى ﷺ أنه قـال: «**دخلت الجنة، فسمعت قراءة، فقلت: من هذا؟**» فقيل: حارثة بن النعمان، فقـال رسول الله ﷺ : «**كذلكم البـر، كذلكم البر**» وزاد عبد الرزاق فى روايته: «**وكان أبر الناس بأمه**»[1].

وقد رأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته، فقال: يا ابن عمر أترى أنى جزيتها؟ قال: «لا، ولا بطلقة واحدة، ولكنك أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً».

* وفى رواية البخارى فى «الأدب المفرد»: (أن أبا بردة

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٦/٦ ، ١٥١ ـ ١٥٢، ١٦٦ ـ ١٦٧)، والبغوى فى «شرح السنة» (٧/١٣)، وعبد الرزاق فى «المصنف» (٢٠١١٩)، والحاكم (٢٠٨/٣)، وصححه، ووافقه الذهبى، وقال الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» (٦١٨/١): إسناده صحيح. اهـ.

بن أبى موسى الأشعرى حدث أنه شهد ابن عمر ﵄ رجلاً يمانياً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إنى لهـا بعيـرُها المذلَّلَ إن أُذْعِرت ركابُهَا لم أُذْعَرُ

الله رَبى ذو الجلال الأكبرْ

حملتُها أكثر مما حملت فهل ترى جازيتها يا بن عمر

ثم قال: يا ابن عمر! أترانى جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة) (١).

✻ وعنه أيضاً ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر يتماشون، أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطّت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يُفَرِّجها، فقال**

---

(١) رواه البخارى فى «الأدب المفرد» رقم (١١)، وابن المبارك فى البر والصلة، والبيهقى فى «شعب الإيمان»، فى الخامس والخمسين، والزفرة: المرة من الزفير، وهو تردد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع.

أحدهم: اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رجعت عليهم، فحلبت، بدأت بوالدىّ أسقيهما قبل ولدى، وإنه قد نأى بى الشجر [1]، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون [2] عند قدمى، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم حتى يرون السماء» ـ الحديث [3].

(وكان الفضل بن يحيى أبرّ الناس بأبيه، بلغ من بره إياه أنهما كانا فى السجن، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب فى ليلة باردة،

---

(١) نأى بى الشجر: بعُد المرعى، والرجوع عنه.
(٢) يتضاغون: يصوتون باكين.
(٣) رواه البخارى (٣/٨) ط الشعب، ومسلم (٨٩/٨) فى الرقاق، وابن حبان (٤٩٧ ـ موارد)، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٤٠/٨).

فلما نـام يحيى قام الفضل إلى قُمْقُمَة وملأها مـاء، ثم أدناه من المصبـاح، ولم يزل قـائمـاً ـ وهو في يده ـ حتى أصبح) (١).

* وعن أبي عبـد الرحـمن قـال: (كـان رجل منا براً بوالديه، فأمراه، أو أمره أحدهما أن يتزوج، فتزوج، فوقع بين أمه وبين امرأته شر، ووافقه أهله، فقالت له أمه: طلقها، قال: فاشتد عليه أن يطلق امرأته، واشتد عليه أن يعق أمه، قال: فرحل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فقصَّ عليه قصته، فقال: ما كنت آمرك أن تطلق امرأتك، ولا أن تعق أمك، ولكن إن شئت حدثتك حديثاً سمعته من النبي ﷺ: «الوالد (٢) أوسط (٣) أبواب الجنة، فإن شئت فحافظ على الباب، أو ضيع» قال: فأنا أشهدكم أنها طالق، فرجع، وقد طلق

(١) «بر الوالدين» للطرطوشي ص: (٧٨).
(٢) الوالد: أي الشخص الوالد، فيشمل الأم، والأب.
(٣) أوسط أبواب الجنة: أي خير أبواب الجنة، والمقصود أن طاعته تؤدي إلى دخول الجنة من أوسط أبوابها.

امرأته) [١].

* وعن أبى كثير السحيمى قال: حدثنى أبو هريرة ﵁ قال: (والله، ما خلق الله مؤمناً يسمع بى إلا أحبنى) قلت: وما علمك بذلك؟ قال: (إن أمى كانت مشركة، وكنت أدعوها إلى الإسلام، وكانت تأبى علىّ، فدعوتها يوماً: فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ، وأنا أبكى فأخبرته، وسألته أن يدعو لها، فقال: «اللهم اهد أم أبى هريرة» فخرجت أعدو أبشرها فأتيت، فإذا الباب مجاف، وسمعت خضخضة الماء، وسمعت حسى، فقالت: كما أنت، ثم فتحت، وقد لبست درعها، وعجلت عن خمارها، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكى من الفرح كما بكيت من الحزن، فأخبرته،

---

(١) الترمذى (١٩٠١) فى البر والصلة، وقال: «هذا حديث صحيح»، وصححه ابن حبان (٢٠٢٣)، وانظر «شرح السنة» للبغوى (١٠/١٣ ـ ١١).

وقلت: (ادع الله أن يحببنى وأمى إلى عباده المؤمنين) فقال: «اللهم حبب عُبَيْدَكَ هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحببهم إليهما» [(١)].

وها هو رضي الله عنه يحكى أنه كان يشتد به الألم من الجوع، فيخرج من بيته إلى المسجد، لا يخرجه إلا الجوع، فيجد نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون: يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة؟ فيقول: ما أخرجنى إلا الجوع، يقول أبو هريرة: فقمنا، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال: «ما جاء بكم هذه الساعة؟» فقلنا: يا رسول الله، جاء بنا الجوع، قال: فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر، فأعطى كل رجل منا تمرتين، فقال: «كلوا هاتين التمرتين، واشربوا عليهما من الماء، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا» قال أبو هريرة: فأكلت تمرة وخبأت الأخرى، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٩/٢ ، ٢٢٠)، ومسلم (٢٤٩١)، فى «فضائل الصحابة» وحسنه الحافظ الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» (٥٩٣/٢).

ﷺ: «يا أبا هريرة، لم رفعت هذه التمرة» فقلت: رفعتها لأمي، فقال: «كُلْها، فإنا سنعطيك لها تمرتين، فأكلتها، فأعطاني لها تمرتين» [١].

* وعن أبي مُرَّة: (أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يستخلفه مروان، وكان يكون بذي الحليفة، فكانت أمه في بيت، وهو في آخر، قال: فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها، فقال: السلام عليك - يا أمتاه - ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك يا بني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثله) [٢]. (ولازم أبو هريرة رضي الله عنه أمه، ولم يحج حتى ماتت لصحبتها) [٣].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/٥٩٢ - ٥٩٣)، «طبقات ابن سعد» (٤/٣٢٨ - ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم: (١٢)، وروى بعضه الإمام أحمد في «المسند» (٤/٤٠٩، ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٢٦).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/٥١٦ - ٥١٧)، كما عزاه د.محمد عجاج الخطيب في «أبو هريرة راوية الإسلام» ص: (١٢٠).

وهل أتاك نبأ أويس بن عامر القرنى؟ ذاك رجل أنبأ النبى ﷺ بظهوره، وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله، وأخذ البررة الأخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى إلى الله بها، وما كانت آيته إلا بره بأمه، وذلك حديث مسلم (كان عمر رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد؟ قال: نعم، قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بارٌ بها، لو أقسم على الله لأبَرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لى، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غبراء الناس أحب إلىَّ) (١).

(١) رواه مسلم فى «صحيحه» ـ انظر «شرح النووى» (٥/٢٢٣).

* وعن أبى عبد الرحمن الحنفى قال: رأى كَهْمَسُ بن الحسن عقرباً فى البيت، فأراد أن يقتلها، أو يأخذها، فسبقته إلى جحرها، فأدخل يده فى الجحر يأخذها، وجعلت تضربه، فقيل له: ما أردت إلى هذا؟، لِمَ أدخلت يدك فى جحرها تخرجها؟ قال: إنى أحمد؟ خفت أن تخرج من الجحر فتجيء إلى أمى فتلدغها، وكان يمينه الذى يحلف به: إنى أحمد، وأحمد) [1]. اهـ.

* وعن الحسن بن نوح قال: (كان كهمس يعمل فى الجص كل يوم بدانقين، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أمه) [2]. اهـ.

(وكان كهمس الدعاء يكسح البيت، ويخدم أمه، فأرسل إليه سليمان بن على الهاشمى بصرة، وقال: اشتر بها خادماً لأمك، لأنه كان مشغولاً بخدمتها، وكان أبر شيء بأمه، وأراده على أن يقبلها فأبى فألقاها فى البيت، ومضى،

(١) «حلية الأولياء» (٢١١/٦).
(٢) «السابق» (٢١٢/٦).

فأخذها كهمس، وخرج يتبعه حتى دفعها إليه) [١]. اهـ.

(وكان عمرو بن عبيد يأتي كهمساً يسلم عليه، ويجلس عنده هو وأصحابه، فقالت له أمه: إني أرى هذا وأصحابه، وأكرههم، وما يعجبوني، فلا تجالسهم، قال: فجاء إليه عمرو و أصحابه، فأشرف عليهم، فقال: إن أمي قد كرهتك وأصحابك، فلا تأتوني) [٢]. اهـ.

* وعن بعض آل سيرين قال: «ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع». وعن ابن عون قال: «دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه، فقال: «ما شأن محمد أيشتكي شيئاً؟ قالوا: لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه» [٣].

وهذا أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو المسمى زين العابدين، كان من سادات

---

(١) السابق (٢١٢/٦).
(٢) «حلية الأولياء» (٢١٢/٦).
(٣) «السابق» (٢٧٣/٢).

التابعين، وكان كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها فى صحفة، فقال: «أخاف أن تسبق يدى إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها» (١). اهـ.

وهذا عبد الله بن عون: (نادته أمه فأجابها، فعلا صوته صوتها، فاعتق رقبتين) (٢).

(وكان طلق بن حبيب من العُبَّاد، والعلماء، وكان يقبل رأس أمه، وكان لا يمشى فوق بيت وهى تحته ـ إجلالاً لها ـ) (٣).

(وحكى عن ابن القاسم: أنه كان يُقرأ عليه «الموطأ» إذ قام قياماً طويلاً ثم جلس، فقيل له فى ذلك، فقال: نزلت أمى فسألتنى حاجة فقامت، فقمت لقيامها، فلما صعدت

---

(١) «عيون الأخبار» (٩٧/٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٣٩/٣).
(٣) «بر الوالدين» للطرطوشى ص: (٧٨).

جلست) [١].

(وكان حيوة بن شريح ـ وهو أحد أئمة المسلمين ـ يقعد في حلقته يعلم الناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة فألق الشعير للدجاج، فيقوم، ويترك التعليم) [٢].

عن هشام بن حسان قال: كان الهذيل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف، فيقشره، ويأخذ القصب، فيفلقه، قالت حفصة: وكنت أجد قرة، فكان إذا جاء الشتاء جاء بالكانون فيضعه خلفي، وأنا في مصلاي، ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر، وذاك القصب المفلق وقوداً لا يؤذي دخانه، ويدفئني، نمكث بذلك ما شاء الله، قالت: وعنده من يكفيه لو أراد ذلك. قالت: وربما أردت أنصرف إليه، فأقول: يابني ارجع إلى أهلك، ثم أذكر ما يريد فأدعه. [٣].

---

(١) «بر الوالدين» للطرطوشي ص: (٧٨).
(٢) «السابق» ص: (٧٩).
(٣) «صفة الصفوة» (٢٥/٤).

قال هشام: وكانت له لقحة - أي: ناقة حلوب غزيرة اللبن - قالت حفصة: كان يبعث إليَّ بحلبة بالغداة، فأقول: يا بنى إنك لتعلم أنى لا أشربه، أنا صائمة، فيقول: يا أم الهذيل إن أطيب اللبن ما بات فى ضروع الإبل، اسقِيه من شئت.(١).

قال محمد بن سعد: كانت لمسعر بن كدام أم عابدة، فكان يحمل لها لبداً، ويمشى معها حتى يدخلها المسجد، فيبسط لها اللبد، فتقوم فتصلى، ويتقدم هو إلى مقدم المسجد، فيصلى، ثم يقعد، ويجتمع إليه من يريد، فيحدثهم، ثم ينصرف إليها، فيحمل لبدها، وينصرف معها.(٢).

(ولما مات ذُرٌّ - وكان من الأولياء - قال أبوه عمر ابن ذر: اللهم إنى قد غفرت له ما قصر فيه من واجب حقى، فاغفر له ما قصر فيه من واجب حقك، فقيل له: كيف كانت عشرته معك؟ قال: ما مشى معى قط فى ليل إلا

(١) «صفة الصفوة» (٤/٢٥ - ٢٦).
(٢) «السابق» (٣/١٨٨ - ١٨٩).

كان أمامي، ولا مشى معي في نهارٍ إلا كان ورائي، ولا ارتقى قط سقفاً كنت تحته) [(١)].

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: مات أبي، فما سألت الله ـ حولاً ـ إلا العفو عنه [(٢)].

وكان عروة بن الزبير يقول في صلاته ـ وهو ساجد ـ: اللهم اغفر للزبير بن العوام، وأسماء بنت أبي بكر ـ يعني والديه رضي الله عنهما [(٣)].

وكان أبو يوسف الفقيه يقول عقيب صلاته: اللهم اغفر لأبَوَيَّ، ولأبي حنيفة [(٤)].

***

---

(١) «بر الوالدين» للطرطوشي ص: (٧٦).
(٢) «عيون الأخبار» (٣/٩٨).
(٣) «بر الوالدين» للطرطوشي ص: (٧٧).
(٤) «السابق».

التحذير من عقوق الوالدين والأم

وما أحسن قول بعضهم، إغراءً على البر، وتحذيراً عن العقوق ووباله، وإعلاماً بما يدحض العاق إلى حضيض سفاله، ويحطه عن كماله:

(أيها المضيع لأوكد الحقوق، المعتاض عن البر بالعقوق، الناسى لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه، بر الوالدين عليك دَيْن، وأنت تتعاطاه باتباع الشَّيْن، تطلب الجنة بزعمك، وهى تحت أقدام أمك، حملتك فى بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج، وكابدت عند وضعك ما يذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبناً، وأطارت لأجلك وَسَناً، وغسلت بيمينها عند الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذا، وصيرت حجرها لك مهداً، وأنالتك إحساناً ورفداً، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت ما لها للطبيب، ولو خُيِّرَت بين حياتك وموتها، لآثرت حياتك بأعلى صوتها، هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مراراً فدعت لك بالتوفق سراً وجهاراً،

فلما احتاجت عند الكبر إليك جعلتها أهون الأشياءعليك، فشبعت وهى جائعة، ورويت وهى ضائعة، وقدّمت عليها أهلك وأولادك فى الإحسان، وقابلت أياديها بالنسيان، وصعب لديك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، وهجرتها وما لها سواك نصير، هذا، ومولاك قد نهاك عن التأفيف، وعاتبك فى حقها بعتاب لطيف، ستعاقب فى دنياك بعقوق البنين، وفى أُخراك بالبعد من رب العالمين، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد: ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [الحج: ١٠].

لأمك حق لو علمت كبير
كثيرك يا هذا لديه يسير

فكم ليلة باتت بثقلك تشتكى
لها من جواها أنّةٌ وزفير

وفى الوضع لو تدرى عليها مشقة
فمن غصص منها الفؤاد يطير

وكم غسلت عنك الأذى بيمينها

وما حجرها إلا لديك سرير

وتفديك مما تشتكيه بنفسها

ومن ثديها شِربٌ لديك نمير [(١)]

وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها

حنوًا وإشفاقاً وأنت صغير

فآهاً لذى عقل ويتبع الهوى

وآهًا لأعمى القلب وهو بصير

فدونك فارغب فى عميم دعائها

فأنت لما تدعو إليه فقير [(٢)]

***

(١) النمير لغة: الزاكى من الماء.
(٢) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/٧١ ـ ٧٢).

فصل
وفاؤها لأولادها

رغم أن الإسلام لم يحمد من المرأة كراهيتها للزواج بعد زوجها [1] إلا أنه شكره لها، وأجزل عليها مثوبتها، إن اعتزمته، وأقدمت عليه، وفاءً لأبنائها، ورعياً لهم، وضنّاً بهم أن يضيعوا عند غير أبيهم:

* عن سهل بن سعد ﷺ مرفوعاً: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا: وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً» [2].

* ويُروى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنى أرى امرأة تبادرنى، فأقول لها: مالك؟، ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢٠٣/٢)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٢٨١)، (٦٠٨).

(٢) رواه مسلم رقم: (٢٩٨٣) فى الزهد والرقائق: باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، و«الموطأ» (٩٤٨/٢) فى الشعر: باب السنة فى الشعر.

قعدت على أيتام لى» [1].

* ويروى عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ـ** وأومأ يزيد بن زريع الراوى بالوسطى والسبابة **ـ امرأة آمت من زوجها، ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها، حتى بانوا أو ماتوا»** [2].

* وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت عَلَىَّ

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/١٦٢)، وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه عبد السلام بن عجلان، وثقه أبو حاتم، وابن حبان، وقال: يخطىء ويخالف، وبقية رجاله ثقات». اهـ. وقال أبو الفضل عبد الله ابن الصديق الغماري: «رواه أبو يعلى فى «مسنده» بإسناد حسن، ومعنى: «قعدت على أيتام» أى: مات زوجها، وترك لها أيتاماً، فلم تتزوج وقعدت على أيتامها تربيهم». اهـ. من «تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة» ص: (١٧٨) ـ الحديث العشرون والمائة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/٢٩)، وأبو داود (٥١٤٩) فى الأدب باب فضل من عال يتيماً، وفى سنده النهاس بن قهم ابن الخطاب البصرى القاضى، قال الحافظ فى «التقريب»: ضعيف، والسفعة: نوع من السواد ليس بكثير، وأراد أنها بذلت نفسها ليتاماها، وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها، وأسود، وآمت ـ بالمد ـ أقامت بلا زوج، ومعنى بانوا: انفصلوا واستغنوا، وانظر «عون المعبود» (١٤/٥٨).

امرأة، ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئاً، غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبى ﷺ فأخبرته فقال النبى ﷺ: «**من ابتلِى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار**» (١).

*وفى رواية لمسلم: (جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمر التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها، فذكرت الذى صنعت للنبى ﷺ فقال: «**إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار**».

فهذه أم هانىء فاختة بنت أبى طالب رضي الله عنها أخت أمير المؤمنين على رضي الله عنه وبنت عم رسول الله ﷺ وراوية

(١) رواه البخارى (٢٦/٤) فى الزكاة: باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، وفى الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله، ومسلم رقم: (٢٦٢٩)، فى البر والصلة: باب فضل الإحسان إلى البنات، والترمذى رقم: (١٩١٦)، فى البر والصلة: باب ما جاء فى النفقة على البنات.

حديث الإسراء، فرق الإسلام بينها، وبين زوجها (هبيرة) [١]، وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين، فخطبها رسول الله ﷺ، فقالت أم هانىء: «يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من سمعي ومن بصري، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي - تعني رسول الله ﷺ - أن أضيع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي»، وهنا امتدحها النبي ﷺ، وشكر لها ذلك فقال: «إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على بَعْلٍ - أي زوج - في ذات يده» [٢].

وانصرفت أم هانىء إلى الاهتمام بأمور أبنائها وتربيتهم تربية صالحة، فنشأوا عالمين عاملين، وروى بعضهم عنها ما

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢/٣١٢ _ ٣١٣).

(٢) رواه البخاري (٩/١٠٧)، في النكاح: باب إلى من ينكح؟ وأي النساء خير، وفي النفقات: باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده، والنفقة، ومسلم (٢٥٢٧)، في فضائل الصحابة: باب خيار الناس، والإمام أحمد (٢/٢٦٩، ٢٧٥، ٣٩٣، ٤٤٩، ٥٠٢)، وفي رواية «المستدرك» (٤/٥٣): «لكني امرأة مصبية، فأكره أن يؤذوك».

حدثت به عن رسول الله ﷺ من الأحاديث، أمثال ابن ابنها جعدة المخزومي، وابن ابنها يحيى بن جعفر، وابن ابنها هارون، وعاشت حتى خلافة أخيها علي رضي الله عنه.

وكان ذلك بعض عذر أم سلمة حين خطبها رسول الله ﷺ فأرسلت تقول له: إني مُصْبِية [1] فأرسل إليها: «أما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله» فقالت: عند ذلك: مرحباً برسول الله ﷺ [2].

وتلك أم سليم الغُمَيْصَاء رضي الله عنها إحدى السابقات إلى الإسلام، أسلمت ورسول الله ﷺ بمكة، وبايعته حين مقدمه إلى المدينة، وكان إسلامها مراغمة لزوجها مالك بن

---

(١) أي: ذات صبية، والصبي من لم يفطم بعد، وقد كان لها ثلاثة أولاد سلمة أكبرهم، وعمر، وزينب أصغرهم، وربوا في حجر النبي ﷺ.

(٢) انظر روايات الحديث في «الطبقات» لابن سعد (٨/ ٩٠)، و«المسند» للإمام أحمد (٦/ ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧)، وسنن النسائي (٦/ ٨١، ٨٢)، في النكاح: باب إنكاح الابن لأمه، وقال الحافظ في «الإصابة» (١٣/ ٢٢٣): إسناده صحيح. اهـ. وصححه ابن حبان (١٢٨٢)، والحاكم (٤/ ١٧)، ووافقه الذهبي.

النضر، وكان ولدها أنس بن مالك يومئذ طفلاً رضيعاً، فكانت تقول له: قل لا إله إلا الله، قل أشهد أن محمداً رسول الله، فجعل ينطق بذلك أول ما ينطق، فكان مما يثير الغضب فى نفس مالك، فيقول لها: لا تفسدى علىَّ ولدى، فتقول: إنى لا أفسده، ثم أيأسه أمرها فخرج عنها إلى الشام، وهنالك لقى عدوا له، فقتله، فلما بلغها قتله ـ وكانت شابة حدثه، وكثر خطابها ـ قالت: لا جرم، لا أفطم أنسا حتى يدع الشدى، ولا أتزوج حتى يجلس فى المجالس ويأمرنى، فوفَّت بعهدها وبَّرت، وكان أنس رضي الله عنه يعرف لها تلك المنة، ويقول: جزى الله أمى عنى خيراً، لقد أحسنت ولايتى.

حتى إذا شب أنس تقدم لخطبتها أبو طلحة زيد ـ وكان مشركاً ـ فأبت ثم قالت له يوماً فيما تقول: أرأيت حجراً تعبده لا يضرك ولا ينفعك، أو خشبة تأتى بها النجار، فينجرها لك: هل يضرك؟ هل ينفعك؟، وأكثرت من أشباه ذلك الكلام، فوقع فى قلبه الذى قالت، فأتاها فقال: لقد

وقع فى قلبى الذى قلت، وآمن بين يديهـا، قـالت: فـإنى أتزوجك، ولا أريد منك صـداقـاً غيـر الإسـلام [١]. قـال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سليم الإسلام [٢]. اهـ.

وقالت امرأة من نساء اليمامة تدعى (أم أُثال) ـ وكانت كأحسن النساء وجهاً ـ فلما مات زوجها، تدافع الخطاب على بابها، فردت كل خاطب، وفاءً لابنها أُثال:

لعـمـر أُثال لا أفـدى بعـيـشـه
وإن كـان فى بعض المعاش جـفـاء

إذا استجمعت أم الفتى غضَّ طرفه
وشـــاعَـــرَهُ دون الدِّثار بلاءُ [٣]

---

(١) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٤٢٦/٨)، والنسائى (١١٤/٦) فى النكاح: باب التزويج على الإسلام، ورجاله ثقات، خلا خالد بن مخلد، وهو القطوانى، قال الحافظ فى «التقريب»: صدوق له أفراد. اهـ.
(٢) رواه النسائى (١١٤/٦).
(٣) «بلاغات النساء» ص: (١٣٢ ـ ١٣٣).

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة فى الوفاء لخير ما خلقت له، ووكلت به.

الأمومة والتضحية:

تنتقل المرأة بعد ذلك إلى طور آخر تبلغه، فتبلغ به غاية ما أُعدت له من كمال النفس، وشرف العاطفة، ذلك طور التضحية، فهناك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فُصل عن لحمها ودمها، تسهر لينام، وتظمأ ليروى، وتحتمل الألم المُمِضّ - راضية مغتبطة - لتذيقه طعم الدعة، وتُنشِيه نسيم النعيم.

تلك هى التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها.

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وهاك هذه القصة الشعرية الرمزية، والتى يُظهر فيها الشاعر حقيقة قلب الأم، وما يكنه من مشاعر وعواطف، ورأفة وحنان:

أغــرى امــرؤٌ غُــلامــاً جــاهلاً
بنقــوده كــيــمــا ينالَ به الوَطَرْ
قــال ائتنى بفــؤادِ أمِّك يا فــتى
ولك الجـــواهرُ والدراهـمُ والدُّرَر
فـمـضى وأغـرزَ خنجراً فى صـدرها
والقلبَ أخـرجـه وعـاد على الأثر
لكنه من فــرطِ ســرعــتــهِ هوى
فـتـدحـرجَ القلب المقطعُ إذ عَـثَـر
ناداه قلبُ الأم وَهْوَ مُـــعَـــفَّــرٌ
ولدى حبيبى هل أصابك من ضرر؟
فكَأنَّ هذا الصـــوتَ رغم حُنُوِّه
غضبُ السماءِ على الغلامِ قد انهمر
فــدى فظيعَ جنايةٍ لم يَجْنِهــا
ولدٌ ســـواه منذ تاريخ البـــشـــر

فــارْتَدَّ نحــو القلب يغــسلُه بما

فـاضت به عـيناه من سَيْلِ العِـبَـر

ويقـــولُ يا قلبُ انتـــقم منى ولا

تغـفـرْ فـإنَّ جـريمتى لا تُغْـتَـفَـرَ

واسْــتَلَّ خِنجَـــرَهُ ليطعنَ قلبَـــهُ

طعناً فـيـبـقى عِـبْـرةً لمن اعـتـبـر

نـاداه قـلــبُ الأم كُـفَّ يـداً، ولا

تطعن فـؤادى مـرتين على الأثر (١)

***

(١) نقلا من «خطر التبرج والإختلاط» عبد الباقى رمضون. ص: (١٣٤ - ١٣٥).

فصل
من مواقف الأم المسلمة

[في قرن وبعض قرن، وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض قوة وبأساً وحكمة وعلماً، فراضوا الأمم، وهاضوا الممالك، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا، وهامات أفريقية، وأطراف أوربة، وتركوا دينهم، وشرعهم، ولغتهم، وعلمهم، وأدبهم تدين لها القلوب وتنقلب بها الألسنة، بعد أن كانوا فرائق بدداً لا نظام، ولا قوام، ولا علم، ولا شريعة.

ففي أي المدارس درجوا، ومن أي المعاهد خرجوا؟.

لقد قطع المسلمون تلك المرحلة التي سَهَم لها الدهر، ووجم لروعتها التاريخ، ولم يقيموا معهداً أو ينشئوا جامعة... أستغفر الله! بل لقد كانت خِصاصهم، وخيامهم، ودورهم، وقصورهم، معاهد، ومدارس، وما شئت من مغارس حكمة، ومغاوص آداب، وَلِيَ أمرهم أمهاتُ صدق، أقامهن الله على نشئه، واستخلفهن على صنائعه، وأتمنهنّ على دُعاة حقه، ورعاة خَلْقه، فكن أقوم خلفائه بواجبه، وأثبتهن عهده،

وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره.

لقد كان الله سبحانه وتعالى أبر بهؤلاء القوم من أن يُخْرجهم مُخْرجاً سيئاً، أو يُنبتهم منبتاً فاسداً، أو يضمهم إلى صدور واهية، وقلوب سقيمة، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة، ويوردهم أسمى مقاصدها.. لأن الأم من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فهي غذاء أرواحها، ومران أعوادها، ومفيض مداركها، ومبعث عواطفها، فإن وهنت كان كل أولئك ضعيفاً.

لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة.... وإذا كانت المرأة الحديثة قد انصتت لـ «لنكولن» زعيم الجمهورية الأمريكية، وهو يقول لمهنئيه بمنصب من مناصب الدنيا: «لا تهنئوني، وهنئوا أمي فهي التي رفعتني إلى مقامي هذا»، فإن المرأة المسلمة كانت تستمع لأشباه هذا الكلام من أشباه «لنكولن»، فلا ينثني جيدها، ولا يهتز عطفها لطول ما سمعته وألفته] [1]،

(١) انظر «المرأة المسلمة» لعبد الله عفيفي (٢/١٢٥ ـ ١٢٦).

ودونك هذه المواقف للأم المسلمـة لتـرى مـصـداق هذا الحديث:

* بطل قريش يرتجف أمام أمِّه:

(لما كانت موقعة أحد أغرت هند بنت عتبة بحمزة بن عبد المطلب من خالسه فصرعه ـ وكان قد قتل آلها يوم بدر ـ ثم نفذت إليه فبقرت بطنه، ونزعت كبده، وجدعت أنفه، وحلمت أذنيه، وجاء بعدها أبو سفيان، فأخذ يطعنه بالرمح في فمه حتى مزقه ... انقضت الموقعة وجثمان حمزة تكاد تَحيل معالمه لفرط ما مُثِل به، فلما وقف به رسول الله ﷺ اشتد حزنه لِمَا أصاب عَمه البطل الكريم، ووقف بنجوة منه، ثم أبصر فوجد عمته صفية بنت عبد المطلب مقبلة لتنظر ما فعل القوم بأخيها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «دونك أمك فامنعها، وأكبر همه ألا يَجِدَّ بها الجزع لما ترى، فلما وقف ابنها يعترضها قالت: «دونك، لا أرض لك، لا أم لك!».

وهنالك رجفت أحناء بطل قريش، وزلزلت قدماه،

واعتقل لسانه، وكَرَّ راجعاً إلى رسول الله ﷺ فحدثه حديث أمه، فقال: «خلِّ سبيلها».

كذلك انفرجت صفوف الناس لعمة رسول الله ﷺ فسارت حتى أتت أخاها فنظرت إليه، فصلَّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، وقالت لابنها: قل لرسول الله ﷺ ما أرضانا بما كان في سبيل الله ! لأحتسبنَّ، ولأصبرنَّ إن شاء الله [(١)].

(فانظر إلى موقف البطل المسلم حيال أمه، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقف دونها فيعترضها! ولو سامه النبي ﷺ أن يعترض الجيش اللهام لوقف في سبيله غير هائب ولا مدفوع ... وماله لا يعنو وجهه، ولا ترتجف أضالعه لعظمة الأمومة وعظمة الخُلُق؟!.

(١) «السابق» (١٢٩/٢ ـ ١٣٠)، وانظر «الروض الأنف» للسهيلي (١٧٢/٣).

* لبث عبد الله بن الزبير [1] على إمرة المؤمنين، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثمانى سنين، ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقارعه فانتقص منه العراق، ورماه بعد ذلك بالحجاج بن يوسف، فأخذ يطوى بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوقها، ونصب المجانيق على الكعبة، وأهوى بالحجارة عليها، وفى الكعبة يومئذ أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما.

وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة فيعيث فيهم، ويروّع أبطالهم، وليس حوله إلا القوم الأقلون عدداً، والحجاج بين ذلك كله يرسل إليه يُمنّيه الخير، ويعده بالإمارة فى ظل بنى أمية لو أغمد سيفه، وبسط للبيعة يده.

دخل عبد الله على أثر ذلك على أمه، فقال: «يا أُمَّه! خذلنى الناس حتى أهلى وولدى، ولم يبق معى إلا اليسير،

(١) ابن الزبير رضي الله عنه أبوه حوارى رسول الله، وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، انظر «البداية والنهاية» (٨/٣٣٤).

ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟، فقالت: الله الله يا بنى! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه، فامضِ عليه، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت إنى كنت على الحق فلما وهن أصحابى ضَعُفَت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير، كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، والله لضربة بالسيف فى عِزٍّ أحبُّ إلىَّ من ضربة بالسوط فى ذل، فقال: يا أماه، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى، قالت: يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك، واستعن بالله، فقبَّل رأسها، وقال لها: هذا والله رأيى، والذى قمت به داعياً إلى الله، والله ما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل إن تُهتك محارمه، ولكنى أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى، والله ما تعمدت إتيان منكر،

ولا عملاً بفاحشة، ولم أَجُرْ فى حكم، ولم أغدر فى أمان، ولم يبلغنى عن عمالى حيف فرضيت به، بل أنكرت ذلك، ولم يكن شىء عندى آثر من رضاء ربى، اللهم إنى لا أقول ذلك تزكية لنفسى، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى، فقالت: والله إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً، إن تقدمتنى احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى انظر إلاَمَ يصير أمرك، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة، والمدينة، وبره بأمه، اللهم إنى قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك فأثبنى فى عبد الله ثواب الشاكرين، قال: يا أمه لا تدَعى الدعاء لى قبل قتلى ولا بعده، فقالت : لن أدعه، فمن قُتِلَ على باطل فقد قُتِلْتَ على حق، فتناول يدها ليقبلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال لها: جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى فى الدنيا، قالت: امض على بصيرتك، وادن منى حتى أودعك، فدنا منها فعانقته، وقبلته، فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من

يريد ما تريد، فقال: ما لبستها إلا لأشد متنك، قالت: إنها لا تشد متنى، فنزعها ثم درج لِمّته، وشد قميصه وجبته، وخرج وهو يقول:

أبى لابن سلمى أن يُعير خالداً
ملاقى المنايا أىَّ صرف تيمّما
فلست بمبتاع الحياة بسُبَّة
ولا مرتقٍ من خشية الموت سُلّما

وقال لأصحابه: احملوا على بركة الله، وليشغل كل منكم رجلا، ولا يلهينكم السؤال عنى، فإنى على الرعيل الأول، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، وهناك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شعباً من شعاب مكة يستدمى، فبصرت به مولاة له، فقالت: وا أمير المؤمنينا!. فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصلبه الحجاج، فأقام جثمانه على الجذع عاماً كاملاً، حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله، أخذته أمه

فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه، وذهب البلى بأوصاله، ثم كفنته، وصلت عليه، ودفنته [١].

* وروى ابن حزم بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر رضي الله عنهما المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يصلب، فقيل له: هذه أسماء، فمال إليها وعزاها، وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإن الأرواح عند الله عز وجل، فقالت له أسماء: وما يمنعني وقد أهدى رأس يحيى إلى بغي من بغايا بني إسرئيل [٢].

* وعن جويرية بن أسماء عن عمه أن إخوة ثلاثة شهدوا يوم تستر، فاستشهدوا، فخرجت أمهم يوماً إلى السوق لبعض شأنها، فتلقاها رجل حضر «تستر»، فعرفته، فسألته عن أمور بنيها، فقال: استشهدوا، فقالت: مقبلين، أو مدبرين؟، فقال: مقبلين، قالت: الحمد لله نالوا الفوز،

(١) «السابق» (٢/١٣٠ ـ ١٣٢)، وانظر «البداية، والنهاية» (٣٢٩/٨ ـ ٣٤٥).
(٢) «المحلى» (٢٢/٢)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٢٩٤/٢ ـ ٢٩٥).

وحاطوا الذمار بنفسي هم وأبي وأمي. اهـ. من «جمهرة الخطباء»[١]. اهـ.

كل ذلك وأشباهه ما جعل للأم المقام الأوفى، والمنزلة الأسمى، وهذا هو سر عظمة القوم، وسبيل نهضتهم، ومُنْبَعَث قوتهم، وإليه مرجع استبسالهم واستماتتهم:

خلّفْتِ جيلاً من الأبطال سيرتهم

تضوع بين الورى رَوْحاً وريحاناً

كانت فتوحهمو بِرًّا ومرحمة

كانت سياستهم عدلاً وإحساناً

لم يعرفوا الدين أوراداً ومِسْبحة

بل أُشْبِعوا الدينَ محراباً وميْداناً[٢]

***

---

(١) «المنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية» للشيخ محمد بن أحمد بن عبد السلام خضر ص: (٢١١).
(٢) انظر «تربية الأولاد في الإسلام» (١/٢٩٨).

فصل

الأم المسلمة وراء هؤلاء العظماء

إذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامى، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذَلَّتْ لهم نواصى الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبّق ذكرهم الخافقين، إلا وهو ينزع بعرقه وخلقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها؟ مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفى مسارب دمائهم:

فالزبير بن العوام رضي الله عنه : فارس رسول الله ﷺ الذى بلغ من بسالته وبطولته، أن عدل به الفاروق رضي الله عنه ، ألفاً من الرجال، حين أمد به جيش المسلمين فى مصر، وكتب إلى قائدهم عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: أما بعد: فإنى أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام

الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد، وقد صدقت فراسة الفاروق ﷺ، وسجل التاريخ فى صفحاته أن الزبير لا يعدل ألفاً فحسب، بل يعدل أمة بأسرها، فقد تسلل إلى الحصن الذى كان يعترض طريق المسلمين، وصعد فوق أسواره، وألقى بنفسه بين جنود العدو وهو يصيح صيحة الإيمان: الله أكبر.... ثم اندفع إلى باب الحصن، ففتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون، فاقتحموا الحصن، وقضوا على العدو قبل أن يفيق من ذهوله.

هذا البطل العظيم إنما قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ، وأخت حمزة أسد الله، فقد شب فى كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها.

* والكملة العظماء عبد الله، والمنذر، وعروة أبناء الزبير كانوا ثمرات أمهم أسماء بنت أبى بكر ﷺ، وما منهم إلا له الأثر الخالد، والمقام المحمود.

* وأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ تنقل فى

تربيته بين صدرين من أملأ صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال، فكان مغداه على أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه على خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، تركه أبوه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عميس، ولها من الفضل والنبل ما لها.

* وأمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ﷺ أريب العرب وألمعيُّها، ورث عن هند بنت عتبة ما لم يرث عن أبى سفيان، وهى القائلة ـ وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها إن عاش معاوية ساد قومه ـ ثكلتُهُ إن لم يسد إلا قومه، ولما نعى إليها ولدها يزيد بن أبى سفيان قال لها بعض المعزين: إنا لنرجوا أن يكون فى معاوية خلف منه، فقالت: أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أيها شاء.

وكان معاوية ﷺ إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب بالمباهاة بالرأى انتسب إلى أمه فصدع أسماع خصمه

بقوله: أنا ابن هند [١].

* وعبد الله بن زيد المازنى الذى حكى وضوء رسول الله ﷺ، والذى قَتَل مسيلمة الكذاب بسيفه (٢)، وقُتِل هو يوم الحرة ...

وأخوه حبيب بن زيد بن عاصم المازنى الذى أخذه مسيلمة فقطعه، قطعة قطعة.

كلاهما كان ثمرة أم فاضلة مجاهدة هى أم عُمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها، كان أخوها عبد الله بن كعب المازنى من البدريين، وكان أخوها عبد الرحمن من البكّائين، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أحداً، والحديبية،

---

(١) «المرأة العربية» (١٣٣/٢ ـ ١٣٤) بتصرف.
(٢) هكذا ذكره الحافظ الذهبى رحمه الله فى «سير أعلام النبلاء» (٢٨١/٢ ـ ٢٨٢)، وهو يخالف ما ذكره الحافظ بن كثير رحمه الله فى قصة مقتل مسيلمة الكذاب فى «البداية والنهاية» (٣٤١/٦)، (٢٦٨/٦)، من أن الكذاب قتله وحشى ابن حرب، وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى.

ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت وفعلت الأفاعيل [١].

* وعبد الملك بن مروان، أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية، وكان لها من مضاء العزم، وذكاء القلب، ونفاذ الرأى ـ ما لم يكن مروان فى شىء منه، وهى التى يعنيها ابن قيس الرقيات فى قوله لعبد الملك:

أنت ابن عائشة التى فضلت أُروم [٢] نسائها
لم تلتفت للداتها [٣] ومَشَت على غُلَوائها [٤]
وَلَدَتْ أغَرَّ مباركاً كالشمس وَسْطَ سمائها [٥]

* وأبو حفص عمر بن عبد العزيز، أورع الملوك وأعدلهم وأجلهم، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، أكمل أهل دهرها كمالاً، وأكرمهن خلالاً،

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢/٢٧٨ ـ ٢٨٢).
(٢) الأروم: جمع الأرومة: الأصل.
(٣) لدات: جمع لدة، واللدة: الترب، من ولد معك.
(٤) الغلواء: الغلو، وأول الشباب وسرعته.
(٥) «العقد الفريد» (٢/٢١٦) ـ. بولاق.

وأمها تلك التى اتخذها عمر لابنه عاصم، وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب، إلا ما جرى على لسانها من قول الصدق فى نصيحتها لأمها [(١)] وهى التى نزعت به إلى خلائق جده الفاروق رضي الله عنه.

* وأمير المؤمنين عبد الرحمن بن الناصر الذى ولى الأندلس وهو ولاية تميد بالفتن، وتشرق بالدماء، فلما لبثت أن قرت له وسكنت لخشيته، ثم خرج فى طليعة جنده، فافتتح سبعين حصناً فى غزوة واحدة، ثم أمعن بعد ذلك فى قلب فرنسا، وتغلغل فى أحشاء سويسرا، وضم أطراف إيطاليا، حتى ريض كل أولئك له، ورجف لبأسه، وبعد أن كانت قرطبة دار إمارة يذكر الخليفة العباسى على منابرها، وتمضى باسمه أحكامها، أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها

---

(١) حكى الميدانى أن عمر رضي الله عنه مر بسوق الليل ـ وهى من أسواق المدينة ـ فرأى امرأة معها لبن تبيعه، ومعها بنت لها شابة، وقد همت العجوز أن تمذق لبنها ـ أى تخلطه بالماء ـ فجعلت الشابة تقول: يا أمه لا تمذقيه، ولا تغشيه فوقف عليها عمر فقال: من هذه منك؟ قالت: ابنتى، فأمر عاصماً فتزوجها، وهى جدة عمر بن عبد العزيز لأمه.

عواهل أوربة وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم، وفلاسفتها.

أتدرى ما سر هذه العظمة وما مهبط وحيها؟ إنها المرأة وحدها! فقد نشأ عبد الرحمن يتيماً قتل عمُّه أباه، فتفردت أمه بتربيته، وإيداع سر الكمال وروح السمو فى ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت [١].

* وسفيان الثورى، وما أدراك ما سفيان الثورى [٢]؟!! إنه فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، إنه أمير المؤمنين فى الحديث الذى قال فيه زائدة: الثورى سيد المسلمين. وقال الأوزاعى: لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان. وما كان ذلك الإمام الجليل، والعلم الشامخ، إلا ثمرة أم صالحة، حفظ التاريخ لنا مآثرها وفضائلها ومكانتها وإن كان ضن علينا باسمها.

---

(١) «المرأة العربية» (١٣٦/٢).
(٢) انظر «الإمام سفيان الثورى» للدكتور محمد أبو الفتح البيانونى ص: (٣٦ ـ ٣٧).

روى الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله بسنده عن وكيع قال: قالت أم سفيان لسفيان: يا بنى! اطلب العلم! وأنا أكفيك بمغزلى [١]. فكانت ـ رحمها الله ـ تعمل وتقدم له، ليتفرغ للعلم وكانت تتخوله بالموعظة والنصيحة، قالت له ذات مرة ـ فيما يرويه الإمام أحمد أيضاً ـ: يا بنى إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر: هل ترى فى نفسك زيادة فى خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك [٢].

فهل من غرابة بعد هذا أن نرى سفيان يتبوأ منصب الإمامة فى الدين، كيف وهو قد ترعرع فى كنف مثل هذه الأم الرحيمة، وتغذى بلبان تلك الأم الناصحة التقية؟!.

* والإمام الثقة الثبت إمام أهل الشام وفقيههم، أبو عمر الأوزاعى يقول فيه أبو إسحق الفزارى: ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعى، والثورى، فأما الأوزاعى فكان رجل

---

(١)، (٢) «صفة الصفوة» (١٨٩/٣).

عامة، والثورى كان رجل خاصة، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعى، لأنه كان أكثر توسعاً، وكان والله إماماً، إذ لا نُصيب اليوم إماماً، ولو أن الأمة أصابتها شدة، والأوزاعى فيهم، لرأيت لهم أن يفزعوا إليه [١]، وقال الخريبى: كان الأوزاعى أفضل أهل زمانه.

وقال بقية بن الوليد: إنا لنمتحن الناس بالأوزاعى فمن ذكره بخير: عرفنا أنه صاحب سنّة. وقال العجلى: شامى ثقة من خيار المسلمين.

وقال الشافعى: ما رأيت أحد أشبه فقه بحديثه من الأوزاعى [٢].

قال النووى رحمه الله: وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعى وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة

(١) يعنى: كى يفيدوا من علمه وقضائه وورعه.
(٢) انظر «تهذيب التهذيب» (٦/٢٣٨ ـ ٢٤٢).

تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته [١].

وعن سفيان الثورى: أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى خرج حتى لقيه بذى طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ [٢].

وذكر الشيخ أبو إسحق الشيرازى فى «الطبقات» أن الأوزاعى سئل عن الفقه - يعنى استُفتى - وله ثلاثَ عشرةَ سنة (٣).

ذلك الحَبر أيضاً ثمرة أمٍّ عظيمة:

قال الذهبى رحمه الله: قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبى يتعجب من شيء فى الدنيا تعجبه من الأوزاعى ، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعى يتيماً فقيراً

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢٢٩/١).
(٢)، (٣) «السابق» (٣٠٠/١).

في حَجْر أمه، تنقُلُه من بلدٍ إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته، يا بنيَّ! عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمة قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد، أقول في نفسي: أتُرى في المجلس قلب لم يبكِ؟ [1].

قال أبو مسهر: وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى يحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاءً، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت، أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي، وتتفقد موضع مُصَلَّاه، فتجده رطباً من دموعه في الليل [2].

* وهذه أم «ربيعة الرأي» شيخ الإمام مالك، أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلّفها زوجها عندها، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل،

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١٠/٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢٠/٧).

فأحمد الرجل صنيعها، وأربح تجارتها فى قصة طويلة ساقها ابن خلكان قال:

(وكان فرُّوخ أبو ربيعة خرج فى البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية، وربيعة حمل فى بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً، وفى يده رمح، فنزل ودفع الباب برمحه، فخرج ربيعة، وقال: يا عدو الله أتهجم على منزلى؟ فقال فرُّوخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمى؟ فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس، فأتوا يعينون ما يحدث وكثر الضجيج، وكل منهما يقول: لا فارقتك، فلما بصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة فى غير هذا الدار، فقال الشيخ: هى دارى، وأنا فروخ، فسمعت امرأته كلامه، فخرجت وقالت: هذا زوجى، وهذا ابنى الذى خلّفه، وأنا حامل به، فاعتنقا جميعاً، وبكيا، ودخل فروخ المنزل، وقال: هذا ابنى؟ فقالت نعم: قال: أخرجى المال الذى عندك، قالت: ـ تعرَّضْ ـ قد دفنته، وأنا أخرجه، ثم

خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك، والحسن، وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به، فقالت أمه لزوجها فروخ: اخرج فصل في مسجد رسول الله ﷺ، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: لقد رفع الله ابني، ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله بل هذا، فقالت: أنفقت المال كله عليه، قال: فوالله ما ضيّعته) (١).

ثم إذا نشرنا صفحة العهد العباسي، بل صفحة العهد الإسلامي لا نجد في تضاعيفها امْرءاً دنت له قطوف العلم

(١) «من أخلاق العلماء» للشيخ محمد بن سليمان ص: (١٥٣ ـ ١٥٤).

والحكمة، ودانت له نواصى البلاغة والفصاحة كمحمد بن إدريس الشافعى فهو الشهاب الثاقب الذى انتظم حواشى الأرض فملأ أقطارها علماً، وفقهاً، ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة.

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها، وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد [١]، وهى التى تنقلت به من «غـزة» مـهـبطه إلى «مكة» مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك.

(وكانت أم الشافعى رحمها الله ـ باتفاق النقلة ـ من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة [٢]، ومن طريف ما يحكى عنها من الحذق والذكاء: أنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى [٣] مع رجل، فأراد أن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعى: ليس لك ذلك، لأن الله سبحانه

---

(١) «طبقات الأدباء» (٣٦٨/٦)، «المجموع» للنووى (١٤/١).
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكى (١٧٩/٢).
(٣) هى أم بشر المريسى كما فى «السابق» (١٧٩/٢).

وتعالى يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فرجع القاضي لها في ذلك) (١).

قال الحافظ ابن حجر: «وهذا فرع غريب، واستنباط قوي» (٢).

* وكان جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول، وأعرفهم بفنون الكلام، وكان إذا عقب رسالة، أو وقَّع تحت كتاب فإليه مباءة البلاغة، ونهاية الإيجاز، حتى لقد يتدافع الكُتَّاب على بابه فيشترون من حُجَّابه كل توقيع بدينار.

«كل ذلك ورثه جعفر عن أمه لا عن أبيه» (٣).

وقال رجل من العباد لأمه! يا أمه: ذريني لله أتعبد له، وأتعلم العلم، فقالت: نعم، فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت: من؟ فقال: لها، ابنك فلان، قالت:

---

(١) ، (٢) «توالي التأسيس» لابن حجر ص: (٤٦).
(٣) «البيان والتبيين» (٥٩/١).

قد تركناك لله، ولا نعود فيك [١].

كذلك كان النساء في ذلك العهد الكريم مبعث كل شيء في نفوس أبنائهن، والأمر في ذلك ما قال رافع بن هريم:

فلو كنتم لِمُكْيِسةٍ لكاست
وكَيْسُ الأم يُعْرَفُ في البنينَا

أما بعد:

فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه.

لقد كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية، مهبط الشرف الحر، والعز المؤثلِ، والمجد المكين،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/٦٦) بتصرف.

وصدق الشاعر:

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتهـــا

أعـدت شـعـبـاً طيب الأعـراقِ

الأم روض إن تعـــهـــده الحـــيـــا

بـــالـــرى أورق أيمـــا إيـــراقِ

الأم أســـتـــاذ الأســـاتذة الأُلَى

شـغلتْ مـآثُرهم مـدى الآفـاق

***

